فنان تشكيلي مفعم بعشقه للطبيعة

حسين ماضي: الإنسان عرف اللون قبل الكلام

تاريخ النشر: 01/03/2014

بيروت - سناء يزبع:

الفنان حسين ماضي، لا تكتمل لوحته إلا بمقاييسه الدقيقة وتأملاته التائهة في الحقائق منذ أول الخلق إلى خطوط لوحاته الغائصة في عمق الأسئلة والأشكال . منذ أكثر من خمسين عاماً وهو يرصد أبطال أعماله، يشرحها يفككها ويعيد تركيبها، لتصير منحوتة أو لوحة لا تشبه إلا حكايتها .

حين علم من حولي وخاصة بعض الأصدقاء والمعارف من الوسط الثقافي والعارفون بأمور الفن التشكيلي، أنني بصدد إجراء مقابلة مع الفنان حسين ماضي اعتراهم ما يشبه الذهول والتعجب . بدايةً كيف وافق على اللقاء، وثانياً وهو المعروف بقساوة شخصيته وطبعه الحاد وبُعده عن المجاملات وعدم قبوله الخطأ في السؤال أو عدم الدراية بمعرفة مبادئ الفن "أي الطبيعة والحياة بالنسبة إليه" . لهذا انتابتني مشاعر الخوف والفزع من هذا اللقاء حتى بتُّ ولعدة أيام مسكونة بخوفي محاولةً تأجيل أو إلغاء الموعد، مع المثابرة على تأمل لوحاته والقراءة عنه وعن أعماله وأسرارها، جاهدة في البحث علّني أخفف من قلقي ومن انتقاداته في الوقت نفسه .

دخلت لا أعرف إلى أين أتجه، فجأة لمحته في آخر الغرفة منكباً على ألوانه كأن أحداً لم يدخل، اقتربت وسلمت حتى إنه لم ينظر إلي وهو غارق في عالمه، ارتبكت واحترت في أمري، بعدها تطلع صوبي وأنا أداري إحراجي فقلت له: إن كنت مشغولاً سأنتظر حتى تكمل عملك، وكان قريبه قد جاءني بكرسي لأجلس قبالته بين الأعداد الهائلة لعلب الألوان والأوراق البيضاء الملقاة على الأرض بأشكالها الغريبة، آخذة أشكالاً مختلفة لتخبرك بأنها أنجزت غايتها من "القص واللعب" . لوحات ومنحوتات معلقة ومعروضة داخل المرسم بأشكالها الهندسية وألوانها المنتقاة بدقة داخل الخطوط والمربعات، ومنحوتات تخالها ستثب من معدنها لتحلق في فضاءاتها .

في البداية سألته عن أعماله وما سنخبر القارىء عن هذا النوع من الرسم الذي لم يألفه كثيراً، حيث الخطوط مستقيمة حيناً ومتعرجة ومسننة أحياناً ومثلثات ومربعات وأنصاف دوائر، كأننا أمام صانع يتقن ما يصنع بدقةٍ متناهية . نظر إلي بهدوء وبنظرة فاحصة إن كنت أنا أعرف وقال: ما أراه أن أحداً يريد التعلم ولا المعرفة، ولو علِم هؤلاء ماذا سيتركون في الحياة لأدركوا أنهم لن يتركوا شيئاً . أعطني تصريحاً لأبني مدرسة للفن وبعدها اطلبي التعلم . كيف نتعلم ونحن لا نعرف أبجدية الفن، أول لغة عرفها الإنسان كانت الشكل والصوت واللون وليس الكلام، ونحن ننكر النِعم الأولى التي منحنا إياها الخالق . وأكمل: هل تعلمين من بنى الأهرامات؟ أنا لا أعلم ولكن هناك من بناها، ومن فكّر في الهندسة والشكل والحجم . . علينا أن نقرأ ما نرى وليس أن نرى فقط .

سألني: "هل تعرفين شجرة التين وهل تغيرت؟" وأكمل: "هي مازالت على حالها منذ أن خلقها الخالق، لم يتغير تكوينها مع الحداثة ولم تتحول إلى تينة مودرن، أوراقها مكونة من الوحدات نفسها، ولها التركيب الهندسي نفسه، إنما تختلف بأربع نقاط . الحجم، العدد، اللون، الوضع، وكل شيء في الكون مبني بالدقة نفسها، مثل آخر هيكلكِ العظمي هو الهيكل نفسه بالنسبة إلى شخص في سيبيريا لكنه ليس أنتِ ولستِ هو" .

يضيف: "على أي حال لا يهمني من يرى أعمالي فأنا لا أرسم لأحد، أرسم لأن هذا ما كلفني به ربي، وأنا أعلم بأن لا أحد يهتم أو يبالي بالمعرفة والحقيقة، وفي مجتمعاتنا لن يخسروا المال من أجل العلم تعودنا ان نشتري الإبرة ولا نصنعها، مع أن ما يصرف من المال يبني الكثير" .

ولحسين رؤيته الخاصة في المدارس التشكيلية: "فما أراه من رسم انطباعي ما هو إلا تسجيل لما يراه الرسام، ومن الممكن" للكاميرا أن تصور لنا ذلك بإتقان أكبر، يرسمون الشجرة محاولين مطابقتها قدر الإمكان مع شجرة الواقع، ما الفائدة من ذلك ونحن نراها في الطبيعة بشكلها الحقيقي، أين التطور والابتكار وقراءة الأبعاد الحقيقية للحياة، ماذا سنترك لمن سيأتي بعدنا ليكمل المسيرة؟ المدارس فقط هي لتمييز المراحل، ولكل مرحلة فنانوها ونحن نبتلع ونقلد . في تلك العصور كانت التقنيات رائعة وجميلة ونادرة وهذه التقنيات بحاجة لعلم ومثابرة وبحث، استمرت هذه حتى وصول الفنان العالمي بيكاسو، أراد الاختلاف فهشم الطبيعة وكسّرها وشكّلها على مزاجه وتركها مهشمة، فوصل الخبر لتاجر لوحات ألماني معروف فولدت أسطورة بيكاسو، مع عدم الإنكار لعبقرية هذا الفنان" .

الرسام والمرأة

حسين ماضي عاش في إيطاليا لأكثر من عشرين عاماً ينهل من منابعها علماً وفناً وهندسة وحضارة ومشاهدات وضّبها في حقيبته وعاد إلى لبنان ليبني عالمه المسحور بأسرار الكون .

وعن علاقته بالمرأة وهي الحاضرة في لوحاته ومنحوتاته . يقول: "لا أعرفها ولا تعرفني" . لكنك رسمتها كثيراً، "نعم لا أريد الخوض في ذلك، كل ما في الأمر أحب المرأة كما هي أنظر إليها أراها جميلة فأرسمها بنفس القواعد المترتبة على كل شيء" .